الفروق فى أدوات التشبيه

دراسة من الهدى النبوى الشريف

دكتور

كمال كامل محمود صالح الحداد

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان علمه البيان ، وأجرى على لسان نبيه الفصاحة والبلاغة والبيان ، والصلاة والسلام على خير الناطقين بالضاد ، والذي قال فيه رب العزة سبحانه وتعالى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) (النجم:٣) وعلى آله وصحبه ، ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد ...،

يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني :

إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا ، وأحلى جنىً ، وأعذب وردا وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا من علم البيان ، الذي لولاه لم تر لسانا يحُوك الوشي ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقري الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذي لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة ، ولما استبنت لها على الدهر صورة ، ولاستمر السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على جملتها إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يدركها الاستقصاء [1]

علم البيان هو الأقدر على إيصال الصورة إلى المتلقي بحيث أنها تعمل في المشاعر ، ويكون لها الأثر الذي يرجوه المنشيء ، وفن التشبيه في البيان هو

---

(١) أسرار الإعجاز ص٥.

الأقدر على إبراز خفيات المعاني ، وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى قيمة التشبيه في قوله : " هل تشك في أنه يعمل عمل السحر في المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك المعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك النئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ..ويجعل الشيء من جهة ماء ، ومن أخرى نارا[1]

والذي دفعني لاختيار موضوع البحث :

أولا : نجد كثيرا من الطلاب والباحثين يخلطون في كلامهم في استخداموم لدلالات أدوات التشبيه ، بل إن الكتب الدراسية المقررة على الطلاب تتعرض لهذه الأدوات دون أن تضع الفرق لهذه الأدوات ، بل أزعم أنها تؤصل في أنفسهم أن هذه الأدوات لا فارق بينها ، فنجد الطلاب يتلقون أمثلة مصنوعة لأدوات التشبيه تقول لهم : محمد كالأسد ، كأن محمدا أسد ، محمد مثل الأسد ، محمد يشبه الأسد ، محمد مساو للأسد إلى غير ذلك من الأدوات ، دون تمييز للدلالة في كل أداة ، لأن منها ما يدل على المقاربة في التشبيه ، ومنها ما يفيد المماثلة التامة بين المشبه والمشبه به ، ومنها ما يستخدم في الدلالة على الكيفية إلى غير ذلك مما سوف نتعرض له من خلال البحث إن شاء الله تعالى .

---

١ ـ أسرار البلاغة ت. السيد محمد رشيد رضا ص ١١٠

ثانيا : فإن في اختيار أحاديث الرسول ﷺ لأن الأحاديث النبوية هي الركن الثاني بعد كتاب الله سبحانه وتعالى ، فهو في الطرف الأعلى من البلاغة بين البشر ، واستخدامه للألفاظ حتما يكون في الوضع الملائم لها .

ثالثا : أحاول الإشارة من خلال هذا البحث إلى جهود الأقدمين في تذوق النصوص ، وتقديم عن الأمثلة المصنوعة ، لكي تكون ردا ضمنيا على أولئك الذين يدعون إلى بلاغة جديدة ينكرون فيها جهود القدماء.

رابعا : الصعوبات التي واجهتني في البحث هي : إنني كنت أريد الاكتفاء بكتاب واحد ، أو كتابين من صحيح البخاري ، حتى يكون البحث مركزا ، إلا أنني وجدت أن أدوات التشبيه أكثر مما يمكن أن يتم حصرها في كتاب واحد ، بل وفقد بعض الأدوات التي لم أجد لها وجود في صحيح البخاري مثل مادة (نحو)

وأدعو الله العلي القدير أن يجعلني موفقا في كتابة هذا البحث ، ويدفع عني الزلة والخطأ.

تمهيد

بادئ ذي بدئ يجب الإشارة إلى أن استخدام الأداة في الجملة لابد وأن يؤدي إلى التمايز بين المشبه والمشبه به ، ولكن يبقى التفاوت بين استخدام هذه الأدوات في الدلالة على القرب أو البعد في المشابهة ، أو كما يذكر الجاحظ : "وقد يشبه الشعراء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس ، والغيث والبحر ، والأسد والسيف ، وبالحية والنجم ، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان ؛ وإذا ذموا قالوا : الكلب والخنزير ، وهو القرد والحمار ، وهي الثور ، وهو القيس ، وهو الذئب ، وهو العقرب ، وهو الجمل ، وهو القرنبي ، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ، ولا أسمائهم ، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء[1]

أو كما يذكر صاحب العمدة : أن التشبيه يكون في الأعراض دون الجواهر حيث يذكر في تعريفه للتشبيه : " صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة ، أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه .....فوقوع التشبيه إنما هو أبدا على الأعراض لا على الجواهر ؛ لأن الجواهر في الأصل كلها واحد [2]

حتى عند استخدام الأدوات التي تدل على المشابهة التامة بين المشبه والمشبه به كلفظ : " مثل ومساو " ..الخ –كما سيظهر من خلال هذه الدراسة – نلاحظ أيضا هذه الفروق في الدلالة .

---

١ . الحيوان للجاحظ جـ١ صـ٢١١

٢ . العمدة لابن رشيق القيرواني جـ ١ صـ٢٨١

وابن سنان الخفاجي أشار أيضا إلى نفس هذا المعنى في قوله : "ومن صحة التشبيه ، وهو أن يقال أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات ، وإن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه حتى لا يفصل بينهما تغاير البتة ؛ لأن هذا لو جاز لكان أحد الشيئين هو الآخر بعينه ، وذلك محال [1]

وهذه الأدوات بينها فروق دقيقة في الاستعمال لاحظ البلاغيون القدامى بعضا من هذه الفروق ، وأشاروا إليها في كثير من المواطن ، ولكنها كانت إشارات قليلة تفتقر لحسن الصياغة ، كما فعل ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني في قوله : "فلو قلت هو كأسد ، وهو كبحر كان كلاما نازلا غير مقبول ، كما يكون قولك : "هو كالأسد" ، إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه " الكاف " فإنه تحسن فيه "أن" كقولك: " كأنه أسد " أو ما يجري مجرى " كأن " في نحو : " كأنه أسدا " ، أو " تخاله أسدا " [2]

وإذا كان من البلاغيين من لاحظ هذه الفروق الدقيقة في بعض هذه الأدوات ، كما ذكر البلاغة السبكي عند حديثه عن " مثل " ، فقد ذكر أيضا إشارات رائعة في [illegible] أداة عن معنى معين لا تشترك معها فيه أي أداة تشبيه أخرى حيث [illegible]

[illegible] يقال على وجهين :

[illegible] بمعنى المثل نحو : " شبه وشبه " .

---

١ . [illegible] ابن سنان الخفاجي صـ٢٢٥

٢ . [illegible] للإمام عبد القاهر الجرجاني صـ٤١٢

والثاني : عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني أي معنى "كأن" وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشارك في الجوهر فقط ، والشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط ، والمثل عام في جميع ذلك " [1]

والأداة هي : الآلة التي يتوصل بها إلى التشبيه سواء كانت اسما أو فعلا أو حرفا .

وقد ذكر البيانيون : أن كل شيء يدل على التشبيه يعد من أدواته[2]

وهذه الأدوات قد تكون حرفا ، أو اسما ، أو فعلا.

فالحروف مثل : الكاف ، وكأن ، وياء النسب.

والاسماء : شبه ، ومثل ، وشبيه ، ومثيل ، وشكل ، ومساو ، ومضاه ، ومحاك ، وعدل ، وعديل ، وكفء ، ومشاكل ، وموازن ، ومضارع وند ، وصنو ، وما كان بمعناها أو مشتقا منها.

والأفعال : يشبه ، ويماثل ، ويحسب ، ويظن ، ويضاه ، ويعادل ، وغير ذلك من الأفعال المشتقة من الأسماء السابقة.

وسوف أتناول ببعض التفصيل هذه الأدوات فيما يلي.

أما بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما ذلك بوحي من عند الله ، فبلاغته ، وإن كانت إنسانية إلا أنها فوق درجات الإنسانية في البلاغة ، فالذي علمه هو رب العزة سبحانه وتعالى ، فلعل من

١ ـ عروس الأفراح للسبكي جـ٢ صـ٣٩١ شروح
٢ ـ ينظر حاشية الدسوقي جـ٣ صـ٢٨٩

ولم تمت أبيه وهو في بطن أمه ، وموت أمه وهو بعد لايزال طفلا صغيرا ألا يكون هناك لبشر فضل في تهذيبه وتعليمه ،فألفاظه أرقى من أن توصف ، وفي أعلى ما يسمع ، وأبدع ما يبحث فيه –وإن قصر جهدي عن تبيينها– ، ويؤيدها الرسول الكريم فقال "أوتيت جوامع الكلم"[1] فمهما وصف أي عالم من العلماء لا يستطيع أن يجمع في كُتب ما ذكره صلى الله عليه وسلم في هذه الجملة القصيرة.

بعد هذا التمهيد لإجمالي الأدوات ، والإشارة إلى بلاغته صلى الله عليه وسلم سأحاول الخوض في بحر أدوات التشبيه في محاولة لالتقاط صدف هذه الأدوات.

أولا الحروف:

ومنها: (الكاف)

الكاف تفيد التشبيه على وجه المقاربة ؛ فإن التشبيه بها لا يوحي بتمام المماثلة والاشتراك التام في الصفة بين المشبه والمشبه به ، ونلمح ذلك في كلام الإمام عبد القاهر حين يعقد مقارنة بين " الكاف " و " كأن " من حيث الدلالة التي تؤديها على المعنى فنراه يقول : " لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى ، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ، فإن قلت : فإذا كان هذا هكذا لا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن اثنين اثنين.

١ ـ صحيح البخاري جـ٤ صـ١٤

قيل لك : إن قولنا " المعنى " في مثل هذا يراد به الغرض ، والذي أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه ، نحو أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول " زيد كالأسد " ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول " كأن زيدا الأسد " فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد ، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول ، وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه ، وأنه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد ، ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي [1]

فهو يلمح إلى أن " كأن " تستعمل فيما تستعمل فيه " الكاف " ، ولكنها تعطي معنى زائدا في التشبيه ، والملاحظ أن الكاف – كما ذكرت – تفيد التشبيه على وجه المقاربة ، ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا وَصَاعِنَا[2]"

فإن الانتقال في الوصف والارتفاع به من طبقة إلى طبقة أعلى في الحب في قوله "أو أشد" يدل دلالة واضحة على أن المبالغة هنا غير واردة ، وأنها تعني المقاربة في الحب ، وإلا لما كان لهذا الانتقال بين درجات الحب أي معنى .

ونلاحظ هنا حس الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستخدامه التشبيه للتأثير في المتلقي ؛ فهذا الحديث ، وما فيه من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم جاء لحادثة خاصة وموقف معين مع أبي بكر الصديق وبعض الصحابة ؛ فقد

١ - دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ت. محمود شاكر ص٢٥٨
٢ - صحيح البخاري جـ١ ص٣٢٣

أصابتهم الحمى بعد الهجرة إلى المدينة ، وكانت وبئة ، ولحس الرسول صلى الله عليه وسلم المدرك لطبائع النفس البشرية ، وما يمكن أن يعتمل في نفوسهم من هذا المكان الذي أول ما هاجروا إليه قد أصيبوا بالمرض ، فدعا بهذا الدعاء ليقبلوا على المكان بنفس راضية ، وخص مكة لتستشعر نفوسهم نسمات هذا المكان الطاهر الذي قدموا منه ، وله في نفوسهم كل تقدير وإجلال .

واختياره للمكان الذي يدعو الله أن ينتقل إليه الوباء وهو " الجحفة " لأنه كان معقل اليهود .

ومثله أيضا :عن أبي سعيد[1] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنّ عذاب الله شديد) ، فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: (أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجلاً، ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة). قال: فحمدنا الله وكبّرنا، ثم قال: (والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو

١ - (أبو سعيد الخدري) * (١٠ ق هـ - ٧٤ هـ = ١١٣ م - ٦٩٣ م) سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري الخدري، أبو سعيد | صحابي، كان من ملازمي النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة | غزا اثنتي عشرة غزوة، وله ١١٧٠ حديث لأعلام الزركلي - (ج ٢ / ص ٨٧)

فالرقمة[1] في ذراع الحمار)[2]

وقد لاحظ الكرماني الفرق في التشبيه هنا بأن المشبه واحد والمشبه به أكثر من واحد بينهما تفاوت حيث يقول :

" والفرق كبير بين المشبه والمشبه به الأول والثاني ، فكيف يصح التشبيه في المقدار بخيلين مختلفي القدر ؟ وأجاب بأن الغرض من التشبيهين أمر واحد ، وهو بيان قلة عدد المؤمنين بالنسبة للكافرين غاية القلة ، وهو حاصل منهما سواء[3]

والأصل فيها أن تدخل على المشبه به لفظا ، والعلامة السبكي يذكر مقياسا لما تدخل عليه الكاف وما هو مثلها من أدوات التشبيه فيقول : إن أداة التشبيه ... إن كان لها معمول واحد وليها في اللفظ المشبه به ، تقول : "زيد كعمرو " أو " مثل عمرو " أو " شبه عمرو"[4]

ومنه عَنْ أَبِي مُوسَى[5] عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَه [1]

---

١ - (الرقمة) الخط، والرقمتان في الحمار هما الأثران اللذان في باطن عضديه، والغاية: بيان قلة عدد المؤمنين بالنسبة إلى الكافرين ؛ أنهم غاية في القلة]. وفي رواية أخرى أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض

٢ - صحيح البخاري جـ٤ صـ٧٢

٣ - (صحيح البخاري بشرح الكرماني ج٢٣/٣٨و٣٩ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط ثانية١٤٠١،١٩٨١

٤ - عروس الأفراح للسبكي جـ٣ صـ٣٩١ شروح

٥ - أبو موسى الأشعري (٢١ ق هـ - ٤٤ هـ = ٦٠٢ - ٦٦٥ م) عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار ابن حرب ، أبو موسى ، من بني الأشعر ، من قحطان : صحابي ، من الشجعان الولاة الفاتحين ، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين . ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام ، فأسلم ، وهاجر إلى إلى أرض الحبشة ، ثم استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن ، وولاه عمر بن الخطاب البحرة سنة ١٧ هـ ، فافتتح أصبهان والأهواز . ولما ولي عثمان أقره عليها . ثم عزله ، فانتقل إلى الكوفة ، فغالب أهلها من عثمان توليته عليهم ، فولاه ، فأقام بها إلى أن قتل عثمان ، فأقره علي . ثم كانت وقعة الجمل وأرسل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه ، فأمرهم أبو موسى

ودقة اختيار " الكاف " كأداة للتشبيه هنا : لأن المراد هنا جزئية واحدة من المشبه به ، وهو : شدة التماسك وتعاضد المؤمنين بعضهم ببعض " وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه [2]

ويلاحظ هنا أن اللاحق للتشبيه تأكيد له ؛ فهو يؤكد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تأكيد المعنى المراد من التشبيه ؛لأنه يدعو المؤمنين إلى الوحدة ، لذلك أتبعه بتشبيك الأصابع ، وهي حركة تدل على المعنى السابق ، "أي يشد بعضهم بعضا مثل هذا الشد ، وذلك أوقع في نفس السامع، كما أنها تدعو إلى شدة التلاحم والتضافر بين المؤمنين وتآزرهم.

ومنه أيضا قول الرسول صلى الله عليه وسلم " إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً[3]"

والسر في استعمال " الكاف " هنا : أنه لا يريد تشبيه حقيقة الناس بحقيقة الإبل ، وإنما هو يريد الإشارة إلى أنه يأتي زمان يكون الناس فيه كثيرين ، ولكن المرضي عنهم ، والذي يلتزم شرع الله عز وجل قليل ، شأن الإبل الكثيرة التي تبلغ المائة، ولا تكاد توجد منها واحدة تصلح للركوب والانتفاع بها.

فقد جاء في هذه الأحاديث المشبه به بعد أداة التشبيه .

بالقعود في الفتنة ، فعزله علي ، فأقام إلى أن كان التحكيم وخدعه عمرو بن العاص ، فارتد أبو موسى إلى الكوفة ، فتوفي فيها . وكان أحسن الصحابة صوتا في التلاوة ، خفيف الجسم ، قصيرا . وفي الحديث سيد القوارس أبو موسى . له ٣٥٥ حديثا الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٤ - ص ١١٤ وفيه : " وفاته سنة ٥٢٠

١ - صحيح البخاري جـ٢ صـ٥٢٠

٢ - صحيح مسلم جـ٤ صـ٦٥

٣ - صحيح البخاري جـ٤ صـ١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي قال في كتابه العزيز (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين:٢٦) ، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه هداه إلى يوم الدين

وبعد ،،،

فقد رأينا من خلال هذه الرحلة بين أدوات التشبيه مدى الفروق الدقيقة بين هذه الأدوات في الاستعمال ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان دقيقا في اختياره لأدوات الشبيه مُدركا لما في هذه الأدوات من خصوصية تتمتع بها كل أداة عن الأخرى فمثلا : الكاف تستعمل حين يريد المتكلم جزءا واحدا من المشبه به لإلحاقه بالمشبه ، فهي تدل على المقاربة في التشبيه .

كأن : تستعمل حين نريد تقوية هذا الجزء .

مثل : تستعمل لإضفاء روح المماثلة التامة بين المشبه والمشبه في صفة معينة أو في كثير من الصفات .

هكذا : تستعمل غالبا مقترنة بحركة تؤيد الفعل المذكور فيها ، فوقوع التشبيه بها منصبا على تشبيه الحركة الجسدية.

مساو : أمكن في الدلالة على هذه المماثلة ... الخ أدوات التشبيه .

وهناك من الأدوات ما هو متفق عليه بين العلماء ، وهناك ما هو مختلف عليه في إفادته لمعنى التشبيه مثل لفظ " سواء " و " حسب ".

وقد كنت في دراستي محاولا استقصاء آراء علماء البلاغة واللغة في توضيح هذه الفروق شارحا ذلك من خلال النصوص النبوية التي كانت بحق أدق وأرقى التعبيرات في الوصول إلى الهدف .

وها أنذا ألمس من خلال هذا البحث دقة الرسول صلى الله عليه وسلم في استخدامه لأدوات التشبيه ، إلى جانب رقة الألفاظ حين يكون المقام يتطلب هذه الرقة ، وقوتها حين يكون المقام يتطلب الشدة والتخويف .

وبعد ،

فإني أطمع أن أكون قد وفقت في كتابة هذا البحث ، وأرجو الله العلي القدير أن ينفع به ، وإن كنت قد وفقت في هذا فهذا فضل من الله ونعمة ، وإن كانت الأخرى فحسبي ثواب الاجتهاد .

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .